النقابات الاســـلامية (*)

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدوري

[تتمــة]

يأتي مصدرنا الثاني من النصف الثاني للقرن التاسع عشر . ففي سنة ١٨٨٤ م قدم إلياس قدسي (وهو سوري) إلى مؤتمر المستشرقين الدولي نتائج بحثه في السنة الفائتة عن طوائف « دمشق[1] » ويجب اعتبار هذا البحث مصدراً تاريخياً وإن كان حديث العهد، لأن معظم ما يصفه قد اختفى دون أن يدرس ثانية

يخبرنا قدسي أنه كان على رأس جميع طوائف المدينة (شيخ المشايخ) وكان هـذا المنصب وراثياً في عائلة خاصة ، ولا يمكن انتخابه أو إقالته أو استبداله بشخص آخر . وكان دوره قابلاً للانتهاء إما بوفاته أو باستقالته (ويكون ذلك أحياناً بتأثير السلطان) وقد كان في زمن أقدم الحاكم الأعلى في جميع شؤون الطوائف . ويحدث المحدثون أن سلطته (أي شيخ المشايخ) كانت في زمن ما واسعة جداً تمتد حتى إلى حق الحكم بالموت . وعلى كل فقـد احتفظ لزمن طويل بحق سجن أو تقييد رجال الحرفة أو ضربهم بالسياط . وكان يعيش على وقف وراثي . وقد أنقصت سلطته إلى حد كبير بعد « التنظيمات » أي الإصلاحات العثمانية في القرن التاسع عشر وأصبح مركزه رتبة شرف فقط . وكان شيخ المشايخ في زمن بحث قدسي عالماً كبيراً ولكنه يجهل تماماً جميع الحرف . وكان عمله الوحيد المصادقة على تعيين رؤساء الطوائف الذين يعينهم الأساتذة

ويظهر أن رتبة شيخ المشايخ كانت مختصة بدمشق فقط إذ لا يوجد لها أثر في أية مدينة أخرى . لم يكن باستطاعة شيخ المشايخ حضور جميع اجتماعات الطوائف شخصياً . لذلك كان يرسل موظفاً خاصاً يسمى (النقيب) في حالة وجود اجتماع لترقية بعض الأعضاء إلى صناع أو أساتذة أو لأي شيء يخص المجموع. وعند ما كانت وظيفة شيخ المشايخ مهمة وذات نفوذ كان له عدة نقباء . لـكن قدسي وجد نقيباً واحداً (زمن بحثه) له معرفة بالحرف ويشؤون الطوائف وهي الصفة التي كانت تنقص الشيخ

ويلي شيخ المشايخ — شيخ الحرفة — ينتخبه أكبر أعضاء النقابة من بين أبرع ماهري الحرفة ، ولم تكن تتبع أية قاعدة في الأولوية سواء أكان ذلك من جهة السن أم طول زمن العضوية فقد يكون الشيخ ، وقد كان كذلك في كثير من الحالات ، شاباً حدثاً، بل كان يطلب فيه أن يكون فاضل الأخلاق، عاملاً ماهراً محترماً بين رجال الطائفة قادراً على تمثيلهم أمام السلطان . كان منصب الشيخ وراثياً في بعض الطوائف ، ولـكنه خاضع دائماً لمصادقة المنتجين . ويعين الشيخ لـكبر سنه ، ويمكن استبداله إن وجد أنه غير جدير بمنصبه . وكانت واجباته : دعوة الاجتماعات وترأسهـا ؛ وملاحظة المحافظة على مستوى الطائفة ، ومعاقبة مخالفي قواعد الحرفة ، وتنظيم شئون العمل (وكان هذا يفوض إلى الأساتذة) ؛ والأحازة إلى درجة صانع أو أستاذ ، وأن يكون رأس الطائفة المسئول في كل العلاقات مع الحكومة . أما فيما يخص انتخاب الشيخ فقد لاحظ قدسي أنه لم يكن ينتخب بالأكثرية ، فعنـد خلو كرسي الرئاسة

(*) راجع الأعداد : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ من الرسالة

(١) راجع بحث إلياس قدسي عن النقابات في دمشق في أبحاث مؤتمر المستشرقين الدولي في جلسته السادسة ١٨٨٤ ص ٣ وما يليها ، والبحث بالعربيـة .

كيف قلت في نعته ؟ كان مجنوناً تنشىء له أعصابه المريضة الهالـكة معانيها التي لا حقيقة لها في حقيقتها هي ... ! ! نعم ، ربما كان ذلك صحيحاً من بعض وجوهه ، ولـكني على يقين من أنك لا تكاد تعرف وجه الحق في تأويل هذا الوصف . لا بأس ومع ذلك ، فأي هذا الناس ليس مجنوناً على الحقيقة من بعض نواحيه ؟ إنك لو جهدت فتتبعت تاريخ الإنسانية كله لم يخلص لك من أصحاب العقل الـكامل إلا أفذاذ قلائل . ومع ذلك ، فليس أحد من هؤلاء الأفذاذ قد نجا من قذف الناس إياه بالجنون . ألا تخبّرني أي الأنبياء — وهم فضائل الإنسانية الـكاملة — يريد أن يقول فيه أهله وعشيرته : « إن هو إلا رجل به جِنة » أو « ساحر » أو « مجنون » ؟

إن من أعظم حقائق الحياة الدنيا أن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقة العقل، أي أنه لا يستطيع أن يدرك حقيقة نفسه ! و ...

وصدَع السكونَ صوت صفير النارة الجوية ، فانتزع صاحبي ثم قال :

— أليس هذا هو صوت جنون سكان العالم ؟ أليس كذلك ؟

« لها تتمة »

محمود محمد شاكر

يجتمع الأساتذة المتقدمون ، ويتناقشون فى المرشحين القابلين للانتخاب فإن لم يتفقوا على شيء يعين شيخ المشايخ شيخاً على كل حال . ثم يثبت شيخ المشايخ الشيخ الجديد فى حفلة خاصة .

كان للشيخ مساعد يسمى شاويش ، وعلاقته بالشيخ كعلاقة النقيب بشيخ المشايخ مع هذا الفرق الهام وهو أنه بينما كان النقيب يعين بواسطة شيخ المشايخ كان الشاويش لا يعين إلا بموافقة المنتجين . ولم تكن للشاويش سلطة خاصة . بل كان ممثلاً ، وضابط تنفيذ لشيخ الحرفة . ويخبرنا قدسى أن منصب شاويش قديم جداً ولكن الاسم حديث

يشتغل المبتدئ من غير أجرة لمدة سنوات حتى يصل إلى سن الرجولة ، وتصبح له مهارة فى الحرفة (على كل كان البعض ينال أجراً أسبوعيا زهيداً حسب ما يستحق) . ثم يصبح بعد ذلك صانعاً ، فإذا لم يتقن حرفته ويتقدم إلى أستاذ بقيت أجوره واطئة ومنع من الاشتغال لحسابه الخاص

كان الصناع فى زمن قدسى يشكلون هيكل الطائفة ، وكانوا أكثرية عظيمة . ويخبرنا أنهم كانوا حافظى سر الطائفة وناقلى أسرارها إلى ما يليهم

ثم يمضى قدسى فى وصف مطول لحفلات الإجازة . يدخل فى ذلك اليمين بالمحافظة على أسرار الطائفة والصنع الجيد ، وكذا الرسوم والقوانين المتقنة التى تنظم كل مظهر من مظاهر حياة رجال الطائفة مع كل العلامات والإشارات المعمول بها . وأخيراً يشير قدسى إلى التشابه بين هذه الحركة وبين الماسونية الحرة فى أوربا متسائلاً عما إذا كانت هناك علاقة بين الاثنين[1]

يكفى ذكر بعض الملاحظات عن الطوائف المصرية حيال هذا الوقت لنتبين بعض الاختلاف ، فشيخ المشايخ غير معروف هنا . وإنما نجد للطوائف تحت رئيس البوابين ... كان لرئيس الطائفة (ويدعى هنا شيخ الطائفة) سلطة نظارة للعمال وتسوية الخلافات فيما يتعلق بهمهم ومعاقبة المخطئين[2] وكان يدعو مجلساً من المختارين (نواب رئيس الطائفة) عند الضروريات يشكل محكمة قضاء لرجال الطائفة . ولم تكن توجد درجة صانع ، بل كان المبتدئ عند إجازته يرفع إلى منزل أسطى أو أستاذ رأساً . وكان يطلب منه صنع شيء نموذجى

ويهمنا بصورة خاصة معرفة أنه كان فى طوائف القاهرة نوع من أنواع التأمين ضد البطالة والمرض يتعاون فى ذلك جميع الأعضاء

لم تستطع كل هذه التشكيلات التى دامت دون تغير تقريباً حتى القرن التاسع عشر ، وأحياناً حتى القرن العشرين مقاومة هزة الفتح الأوربى ، ففى كل محاولة فى البلاد الإسلامية أخذت طرق الإنتاج القديمة تفسح المجال لطرق جديدة ، وهكذا بدأت الطوائف تنحل . وتحولت هذه التشكيلات فى أغلب الأحيان إلى اتحادات تجارية Sindicats من النوع الأوربى كما اشتركت بعض نقابات تونسية وسورية ، ومن الهند الصينية الهولندية فى اتحادات العمال الدولية ، وهناك نقابات أخرى فى دور انتقالى

بقى علينا أن نذكر ناحية غريبة من حياة الطوائف الإسلامية (أى ما يعرف بالطوائف الوضيعة)[1] ، فمن أزمان متقدمة نجد فى البلاد الإسلامية طوائف منظمة كاملة فى مراسيمها ونظمها وتقاليدها من نوع آخر من الحرف كاللصوص وقطاع الطرق فكانت (لبنى ساسان) أو (نهابى القاهرة) المنظمين سطوة عظيمة لمدة طويلة . وفى دور الفوضى فى عصر الخليفة العباسى المقتفى ١١٠٦ – ١١٣٦ م سيطرت طوائف اللصوص فى بغداد على هذه المدينة[2] وهذه الطوائف التى لم تكن لها دون شك أية علاقة بطوائف الصناع الحقيقية ساعدت على حط سمة هذه الطوائف ؛ وكانت يتخذها أعداء الطوائف وسائل للهجوم عليها

ما هى النتائج العامة التى تستخلص من هذا العرض للطوائف الإسلامية ؟ يظهر لى أننا نستطيع أن نستخلص أربع خصائص تميز تنظيمات النقابات الإسلامية من تنظيمات النقابات الأوربية كما يلى :

أولاً : على العكس من النقابات الأوربية التى ظهرت لخدمة عامة معترف بها ولها امتيازاتها وتدار من قبل السلطات العامة للأمير أو البلدية أو الملك نشأت النقابات الإسلامية من تلقاء

(١) بهذه المناسبة لا نجد مانعا من ذكر علاقة قريبة بين الماسونية الحرة والنقابات الاسلامية . فى أوائل القرن التاسع عشر ادعى بعض الفرنسيين فى سوريا بأنهم اكتشفوا شبهاً بين رسوم الماسونية الحرة وبين رسوم الدروز ، ولما كان الدروز من أصل إسماعيلى وتأثير الاسماعيلية على النقابات الاسلامية عظيم كما ذكرنا نجد العلاقة ذات أهمية ، بينما يعتبر (فون همر) نظام النقابات الأوربية مشتقا من نظام النقابات الاسلامية

(٢) ص ١٥ يذكر ملاحظ آخر لنقابات القاهرة وجود هذا الشرط لاحظ Martin Les Bagares du Caire, Paris, 1910

(١) يلاحظ المسعودى وجود نقابات اللصوص في بغداد ٩٥٩ م ، أنظر مروج الذهب طبعة باريس ١٨٩١ ج ٨ ص ١٨٩

(٢) ابن خلدون باريس ج ٣ ص ١٠٣ ، أنظر تلبيس إبليس لابن الجوزى طبعة القاهرة ١٧٤٠ هجرية ص ٤١٥ وما بعدها . قال لى البروفسور Coornaet بأن مؤسسات من هذا القبيل ليست خاصة بالاسلام لوجود نقابات مشابهة لها فى فرنسا فى القسم الأخير من القرون الوسطى

نفسها ، من الشعب ، وتكونت لا إجابة لحاجة الدولة ، بل إجابة لحاجات كتل العمال أنفسهم ، كما أن النقابات الإسلامية اتخذت ، خلا فترة قصيرة ، إما عداوة مكشوفة للدولة ، وإما عدم ثقة . وقوبل ذلك بالمثل من قبل السلطات العامة سياسية أو دينية. ويظهر مدى هذا الشعور ضد السلطات الحاكمة من بروزه المفاجئ في القرن العشرين في الدور الهام الذي لعبته النقابات في الثورة الإيرانية ، ومن التطور المربع للنقابات الإسلامية إلى كتلة ثورية في الهند الصينية . وفي الرابطة القوية بين هذه النقابات وبين الشيوعية الأوربية[1] . ولا ينقص قيمة هذا الاستنتاج منح بعض الأمراء السنيين وضعاً مقيداً للنقابات للحصول على تأييدها كما لا ينفي وجود خلافات في بعض الأحيان بين الحكام الأوربيين وللنقابات كرمز هذه المؤسسات أميرية

ثانياً : تنتج الخاصة الثانية لحياة النقابات الإسلامية أولا مما ذكرناه الآن، وثانياً من حالة طرق الإنتاج التي لم تتغير في الأراضي الإسلامية منذ القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر . فلا يوجد في تاريخ النقابات الإسلامية ما يماثل الازدهار العظيم في النقابات الأوربية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، الذي انتهى بانقسام هذه النقابات إلى سادة وصناع : (طبقتين مختلفتين ومتعاديتين) . وفي ارتفاع السادة السياسي والاقتصادي العظيم ، وفي تنظيم نقابات خاصة للصناع كسلاح في نضال الطبقات العنيف الذي نتج[2] . أما في الإسلام، فقد بقي الأستاذ والسيد والصانع والمبتدئ طبقة واحدة في المجتمع على اتصال شخصي قريب فرتبة الصانع وهي مؤقتة وانتقالية دائماً ، وفي أكثر الأحيان غير موجودة[1] ، لم تتطور أبداً إلى منزلة اجتماعية دون أمل في الارتقاء إلى رتبة أستاذ . فالنقابة الإسلامية خلوها من التفريق الاجتماعي الداخلي[2] الذي يقسم النقابة الأوربية ، حافظت على خاصتها التي انطبعت بها عند ما ظهرت في القرنين العاشر والحادي عشر ، وهي المساواة بين أفرادها كطبقة في المجتمع في شكلها الخاص كثورة العمال ضد ارتفاع الرأسمالية الاقتصادية والتجارية عندئذ.

ثالثاً — والميزة الثالثة في الطوائف الاسلامية : هي كونها تضم أفراداً من مختلف الطوائف ؛ فبينما أبعدت الطوائف الأوربية من صفوفها حتى المسيحيين المختلفي المذاهب ، نجد الطوائف الاسلامية مفتوحة لليهودي والمسيحي والمسلم على السواء ؛ بينما نجد بعض الطوائف الاسلامية تسودها الأغلبية الغير مسلمة

رابعاً — وختاماً يجب أن نلاحظ أهمية الحياة الداخلية الروحية في النقابات الاسلامية؛ فعلى العكس من الطوائف الأوربية لم تكن النقابة الإسلامية تشكيلاً مهنياً فقط ، فمنذ أن كانت النقابة تشكل جزءاً من نظام الدعاية الاسماعيلية حتى الوقت الحاضر احتفظت هذه النقابات دائماً بمثلها المتأصلة فيها قوانينها الأخلاقية والأدبية التي كانت تدرس لكل المبتدئين في نفس الوقت الذي تعلم فيه الحرفة .

عبد العزيز الدوري

(الرسالة) : عالج الأستاذ برنارد موضوع الطوائف الاسلامية علاجاً حسناً ، ولكن ضعف المترجم في اللغة العربية وجهله ببعض المصطلحات التاريخية أسابا للقال بشيء من التفكك والتعرض .

(١) أنظر Revue du monde Musulman Iviii, Iii, Ii ولاحظ الأستاذ ماسينيون أن النقابات في فارس تحتفظ بروح انتقاد خاصة ضد السلطة الحاكمة

(٢) يوجد استثناء لذلك في أناضوليا في القرنين الثالث والرابع عشر فهنا نجد قسما من الأساتذة في جميات الأخوة (كما لاحظ كوبرولو ونشتر) ظهر أنهم تطوروا إلى نوع من الرأسماليين يتمتعون بنفوذ اقتصادي واجتماعي . وهذا الاتجاه يعطي شيئا يوازي التطور البلدي في أوربا ، ولكنها على كل حال كانت محدودة الاتساع ولم تتطور إلى درجة التصادم بين العمال والأساتذة ج . وهي خاصة بأناضوليا حيث خلقت قوة النفوذ البيزنطي والهجرة التركية ظروفا خاصة ، وحتى هنا (أناضوليا) تقضي على هذه الحركة حالما تقوى مركز السلالة العثمانية لذا فلا شيء ، فالشيء الموقت المحلي لا يفسد صحة المبدأ العام بينما يعتبر — (نشتر) — حركة الأخوة كحركة الطبقة المتوسطة صاحبة رأس المال بدل أن يعتبر ظهور طبقة متوسطة من بين النقابات ، وبضم اتحاد الفتوة والنقابات مدة قرون بعد ذلك

(١) بالرغم من أن قدسي يقول أن الصانع يشكل هيكل النقابة تجب ملاحظة أن قدسي شاهد متأخر كتب بعد أن طرأ تغير كبير على النقابة . أما (أوليا) و (صدقي) — صدقي كاتب عن النقابات في القاهرة — فلا يذكران هذا المنصب

(٢) لاحظ Billioud عن خصائص النقابة الاقطاعية المحتكرة في فرنسا فهنا يشكل الأساتذة صنفا إقطاعيا ورثيا يعادي كل العناصر الجديدة الغريبة عن صنفه. قارن هذا بنظر الأساتذة المرشدين للأستاذية في النقابات الاسلامية

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :

السنة الأولى في مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و ٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة في مجلدين .

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشا في الخارج عن كل مجلد